التفسير

(١)

(القرآن الكريم الّذى أوحاه الحكيم العليم هدىً للمؤمنين وعمىً على الكافرين)

الآيات (١ – ٦)

طسٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣

تبدأ سورة النّمل المكيّة الكريمة الّتي نزلت بعد سورة الشعراء[1] بالحروف المقطّعة: ﴿طس﴾ وتتحدّث عن القرآن الكريم فوراً، على غرار سائر السّور الكريمة الّتي تبدأ بالحروف المقطّعة في الحديث عن القرآن الكريم فوراً أو على التّراخي والانتصار له. هذه الآيات آيات القرآن الكريم وآيات كتابٍ مبينٍ عن معانيه ومراميه. وقد جمعت الآية الكريمة الأولى بين وسيلتي الحفظ لهذا الكتاب العزيز. إنّهما القراءة والحفظ في الصّدور، وقد أفادت لفظة القرآن هذا المعنى، والكتابة والحفظ في السّطور، وقد أفادت لفظة كتاب هذا المعنى. والمعروف أنّ القرآن الكريم قد ارتبطت القراءة به في الفترة المكيّة بصورةٍ أوضح، وارتبطت به الكتابة في الفترة المدنيّة بصورةٍ أوضح. وبشأن الآية الكريمة الأولى المشابهة من سورة الحِجْر المكيّة الكريمة، قال تعالى: ﴿الر. تلك آيات الكتاب وقرآنٍ مبين﴾ سبق أن قال الزّمخشري[2]: «وتنكير القرآن للتّفخيم. والمعني تلك آيات الكتاب في كونه كتاباً وآي قرآن مبين. كأنّه قيل: الكتاب الجامع للكمال والغاية في البيان» وإنّ ما قيل عن تنكير لفظة قرآن في سورة الحِجْر يقال عن تنكير لفظة كتاب في سورة النّمل.

---

(١) انظر الاتقان ١/ ٤١.

(٢) الكشّاف ٢/ ١٨٦.

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ
أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ
وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾

فهم يعمهون : يتردّدون حيارى يحسبون أنّهم يحسنون[1].

لهم سوء العذاب: في الدّنيا[2].

إنّ الّذين لا يؤمنون بالآخرة ولا يعملون ليوم القيامة زيّنّا لهم أعمالهم السّيّئة فرأوها حسنة وظنّوا أنّهم يحسنون صنعاً، والحقيقة أنّهم يتردّدون في ضلالهم متحيّرين. إنّهم هم الّذين لهم سوء العذاب في الحياة الأولى من قتلٍ وأسرٍ وهزيمةٍ وخزي وما إلى ذلك، وهم في الآخرة هم الأخسرون حقّاً، فإنّ مصيرهم إلى النّار وبئس القرار.

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

وإنّك لتلقّى القرآن: وإنّك لتأخذ القرآن[3] وتحفّظه وتعلّمه[4].

من لدن: من عند[5].

وإنّك يا محمّد لتأخذ القرآن الكريم الّذى يهدى للطّريقة الّتى هي أقوم والّذى هو عَمىً على الكافرين وتتلقّى هذا الكتاب العزيز من عند الله تعالى الحكيم في صنعه وتدبيره وتقديره، العليم الّذى لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء والّذى أحاط بكلّ شيءٍ علما.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨١.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨١.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ١٨٩.

(٤) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨٢.

(٥) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨٢.

(٢)

(موسى عليه السّلام واياته التّسع، وفرعون وقومه الفاسقون)

الآيات (٧-١٤)

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾

إذ قال موسى لأهله: اذكر يا محمّد حين قال موسى[١].

إنّي آنست ناراً: إنّي أبصرت ناراً أو أحسستها[٢].

سآتيكم منها بخبر: سآتيكم من النّار بخبر[٣] وكان عليه السّلام قد أضلّ بأهله الطّريق من مدين إلى مصر، وذلك في ليلٍ وظلام، فآنس من جانب الطّور ناراً، أي رأى ناراً تأجّج وتضطرم[٤].

أو آتيكم بشهابٍ قبس: الشّهاب: الشّعلة السّاطعة من النّار الموقدة[٥] والقَبَس: المتناولُ من الشُّعلة. والقَبَس والاقتباس طَلَبُ ذلك ثمّ يستعار لطلب العلم والهداية[٦] يعنى أو آتيكم بشهابٍ مُقْتَبَس[٧].

لعلّكم تصطلون: كي تصطلوا بها من البرد[٨] ولعلّكم تستدفئون من البرد[٩]

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ١٩٠ والجلالين وتفسير الطّبرى ١٩/ ٨٢.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨٢ ومفردات الرّاغب الأصفهانى: «أنس» ١/ ٣٥.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨٢.

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ١٩٠.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «شهب» ١/ ٣٥٢.

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «قبس» ٢/ ٥٠٥.

(٧) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨٢.

(٨) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨٢.

(٩) انظر الجلالين ولسان العرب: «صلا».

وأصل الصَّلْي لإيقاد النّار، ويقال: صَلِيَ بالنّار وبكذا أيْ بُلي بها[1] يَصلَى صِلِيًا[2] وصَلِيتُ النّار أي قاسيت حَرَّها[3].

اذكر يا محمّد حين قال موسى عليه السّلام لأهله وقد ضلّ الطّريق في ليلةٍ شاتيةٍ مطيرة بين مدين الّتى تركها، ومصر الّتى قصدها، بالوادى المقدّس طوى، بجوار جبل الطّور في شبه جزيرة سيناء، اذكر يا محمّد حين قال موسى لأهله إنّى أبصرت ناراً سآتيكم منها بخبرٍ نستدلّ به على الطّريق، أو آتيكم بشعلةٍ من النّار الموقدة، مقتبسةٍ من تلك النّار، لعلّكم تستدفئون في هذه اللّيلة الباردة المطيرة.

جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾

نودى أن بورك: عن ابن عبّاس قُدِّس[4].

من في النّار: عن ابن عبّاس: كان نور ربّ العالمين في الشّجرة[5].

ومن حولها: أي من الملائكة. قاله ابن عبّاس وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة[6].

وسبحان الله ربّ العالمين: وتنزيهاً لله ربّ العالمين ممّا يصفه به الظّالمون[7].

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «صلا» ٢/ ٣٧٣.

(٢) لسان العرب: «صلا».

(٣) لسان العرب: «صلا».

(٤) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨٢.

(٥) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨٢.

(٦) تفسير ابن كثير ٦/ ١٩٠.

(٧) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨٣.

إنّه: الهاء ضمير الشّأن مبنى على الضّمّ في محلّ نصب اسم إنّ[1] ومعناها أنّ الأمر والشّأن أنا الله[2].

إنّ أوّل ما نودّ الوقوف عنده القول: ﴿فلمّا جاءها﴾ والمعروف أن القرآن الكريم تجيء فيه جملة: «جاء» دليلاً على القرب، الزّمانيّ أو المكانيّ أو المعنويّ النفسيّ، كما تجيء فيه جملة: «أتى» دليلاً على البعد في كلّ ذلك. ويتأكّد هذان اللّحيّان في كلّ الآيات الكريمات الّتي جمعت بين هاتين الجملتين في نسق، وما أكثر تلك الآيات الكريمات.

وفي ضوء دليل جملة: «جاء» على القرب، ودليل جملة: «أتى» على البعد، نستطيع أن ننظر إلى المناسبة الواحدة الّتي تجيء فيها كلٌّ من الجملتين متفردة، وذلك من زاوية القرب والبعد. لقد جاء في آية سورة النّمل الكريمة هنا جملة: «جاء». قال عزّ من قائل: ﴿فلمّا جاءها﴾ وجاء في آية سورة القصص جملة: «أتى» قال عزّ من قائل[3]: ﴿فلمّا أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشّجرة أن يا موسى إنيّ أنا الله ربّ العالمين﴾ ونستطيع أن نقول إنّ آية سورة النّمل تركّزّ على قرب موسى عليه السّلام من النّار ووصوله إليها، وإنّ آية سورة القصص تومىء إلى المسافة البعيدة بين موسى عليه السّلام وبين النّار.. إنّه عليه السّلام كي يصل إلى مكان النّار بحاجة إلى أن يقطع تلك المسافة البعيدة.. والله تعالى أعلم.

وإنّ موسى عليه السّلام حينما جاء النّار واقترب منها نودي أن بورك وقدّس نور ربّ العالمين في النّار، وبورك من حول النّار من الملائكة الأطهار، وتنزيهاً لله تعالى من كلّ ما ألحقه الظّالمون بالذّات العليّة ووصفوها به. ونادى الحقّ جلّ وعلا موسى عليه السّلام: يا موسى إنّه أنا الله تعالى، العزيز في ملكى، الحكيم في تقديرى وتدبيرى، أكلّمك من وراء حجاب وأناديك.

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ٣٨٩.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨٣.

(٣) سورة القصص ٣٠

وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ
فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ
إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ
سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾

كأنّها جانّ: كأنّها حيّةٌ عظيمة. والجانّ جنسٌ من الحيّات معروف(١).

ولّى مدبرا: ولّى موسى هارباً خوفاً منها(٢).

ولم يعقّب: ولم يرجع، من قولهم: عقّب فلانٌ إذا رجع على عقبه إلى حيث بدأ(٣) أي لم يلتفت وراءه(٤) والعَقِب: مؤخَّرا الرِّجل(٥).

إلاّ من ظلم: إلاّ إداة استثناء، أو حرف بمعنى لكن(٦).

ثمّ بدّل حسناً بعد سوء: ثمّ تاب من ظلمه ذلك وركوبه المأثم(٧).

فإنّى غفورٌ رحيم: فإنّى ساترٌ على ذنبه وظلمه ذلك بعفوى عنه وترك عقوبته عليه، رحيمٌ به أن أعاقبه بعد تبديله الحسن بضدّه(٨).

وأمر الله تعالى موسى عليه السّلام أن يلقى عصاه. وقد سكت السّياق عن الكلام قبل ذلك ممّا أشارت إليه مثلاً سورة طه في أوّلها، وبعض الكلام ذو علاقةٍ

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨٣.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨٤.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨٤.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «عقب» ٢/ ٤٤٣.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «عقب» ٢/ ٤٤٢.

(٦) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ٣٩٠.

(٧) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨٥.

(٨) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨٥.

بآية العصا وذلك في الآيتين الكريمتين ١٧و١٨ والمعروف أنّ آية العصا ذات شقّين اثنين، أحدهما أن يلقي موسى عليه السّلام عصاه الّتى تتحوّل حيّةً تسعى بإرادة الله تعالى. وقد اكتفت آية سورة النّمل بهذا الشّقّ من آية العصا. وآخرهما أن يأخذ عليه السّلام الحيّة فتعود عصاً كما كانت. وإنّ السّورة الكريمة الوحيدة الّتى تحدّثت عن شقّي آية العصا سورة طه في الآيات الكريمات ١٩, ٢٠, ٢١.

إنّ آية سورة النّمل تقرّر أنّ موسى عليه السّلام لمّا رأى العصا الّتى ألقاها تهتزّ وتتحرّك كأنّها الحيّة العظيمة ولّى عليه السّلام مدبراً ولم يلتفت وراءه ولم ينظر خلفه حيث عَقِبا قدميه ومؤخّرُ رجليه، دليلاً على أنّ قرار الفرار نهائيٌّ ولا رجعة فيه. وإنّ ربَّ العزّة والجلال يطمئن موسى عليه السّلام فيناديه باسمه وينهاه عن الخوف فإنّ رسل الله تعالى لا يخافون لديه ولا يحزنون عنده عزّ وجلّ. لكنْ من ظلم نفسه بارتكاب المعاصى وإتيان الفواحش فإنّه يخاف إذا لم يتب ويعمل صالحاً. إنّ من بدّل حُسْناً بعد سوء وعمل الحسنات إثر السّيّئات فإنّ الله تعالى الغفور الرّحيم يغفر ذنوب المستغفرين ويترك عقوبتهم، ويرحم الّذين يتوبون توبةً نصوحاً، ويعملون الصّالحات، ويبدّل سيّئاتهم حسنات.

وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ
مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾

آية اليد هي الآية الثّانية الّتى أيّد الله تعالى بها موسى عليه السّلام. وآية اليد كذلك ذات شقّين اثنين. أحدهما أن يدخل موسى عليه السّلام يده في جيبه ثمّ يخرجها فتخرج بيضاء لها شعاعٌ يغشى البصر من غير مَرَضٍ ولا برص. وآخرهما أن يدخل موسى عليه السّلام يده البيضاء في جيبه ثمّ يخرجها فتخرج أدماء كما كانت. ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تتحدّث عن الشقّ الأوّل من آية اليد. وإنّ السّورة الكريمة الوحيدة الّتى تحدّثت عن شقّي آية اليد سورة القصص في الآية

الكريمة الثّانية والثّلاثين.

إنّ موسى عليه السّلام يحتاج في كلٍّ من المرّتين إلى أن يدخل يده في فتحة قميصه الّتي يدخل فيها رأسه حينما يرتدي القميص، حتّى تصل اليد أو الكفّ إلى الإبط فيضغط عليه السّلام بجناحه على كفّه ويخرج يده فتكون في المرّة الأولى بيضاء من غير سوء وفي المرّة الأخرى أدماء كما كانت.

إنّ آية اليد واحدةٌ من تسع آياتٍ بيّناتٍ أيدّ الله تعالى بها موسى عليه السّلام وأرسله بها إلى فرعون وقومه الفاسقين الخارجين عن الصّراط المستقيم.

والآيات التّسع كما بيّنتها على التّفصيل سورة الأعراف هي العصا واليد والسّنون ونقص الثّمرات والطّوفان والجراد والقَمّل والضّفادع والدّم[1].

فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾
وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

مبصرة: يبصر بها من نظر إليها ورآها حقيقة ما دلّت عليه[2].

وجحدوا بها: الجحود نفي ما في القلب إثباته وإثبات ما في القلب نفيه، يقال: جحد جحوداً وجَحْداً[3] والجحود التكذيب بها[4].

واستيقنتها أنفسهم: وأيقنتها قلوبهم وعلموا يقيناً أنّها من عند الله فعاندوا بعد تبيّنهم الحقّ ومعرفتهم به[5].

---

(١) سورة الأعراف ١٠٧ و١٠٨ و١٣٠ و١٣٣.

(٢) تفسير الطّبري ١٩/ ٨٦.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «جحد» ١/ ١١٥.

(٤) تفسير الطّبري ١٩/ ٨٦.

(٥) تفسير الطّبري ١٩/ ٨٦.

ظلماً وعلواً: يعنى بالظّلم الاعتداء، والعلوّ الكبر، كأنّه قيل: اعتداءً وتكبّراً[1].

لقد جاءت آيات موسى عليه السّلام التّسع فرعون وقومه، وكانت آيات بمثابة الأعين البصيرة الّتى يُبْصِر بها ويستدلّ من نظر إليها وينتهى إلى أنّها آياتٌ بيّناتٌ من عند الله تعالى، تدلّ على صدق موسى عليه السّلام ووجوب اتّباعه. إنّ القوم الّذين جاءتهم تلك الآيات قالوا هذا سحرٌ مبينٌ ومفصحٌ عن عوار فحواه وسوء مرماه. لقد كذّب القوم بتلك الآيات البيّنات بعد أن أيقنت قلوبهم أنّها آياتٌ بيّناتٌ من عند الله تعالى، ولكنّ هذه طبيعة الجَحود الّذى يحرص على نفي ما أثبته قلبه، وعلى إثبات ما نفاه قلبه. لقد ثبت للقوم الماهرين في السّحر أنّ تلك الآيات ليست من السّحر في شيءٍ فأعلنوا أنّها سحرٌ مبين، ظلماً منهم وعدوانا، علواً في أنفسهم واستكبارا. فانظر يا محمّد كيف كان عاقبة أولئك المفسدين في الأرض الّذين أغرقناهم في البحر الأحمر ومائه المِلْح.

ولا يخفى أنّ الآيات الكريمات تهدف إلى تسلية المصطفى ﷺ وتثبيت فؤاده عليه الصّلاة والسّلام وأفئدة المؤمنين القليلى العَدد والعُدّة آنذاك.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩ / ٨٧.

(٣)

(سليمان بن داود عليهما السّلام وملكة سبأ)

الآيات (١٥ – ٤٤)

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ
وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾

ولقد أعطى الله سبحانه وتعالى داود وابنه سليمان عليهما السّلام علماً بالقضاء بين النّاس[1] وعلم كلام الطّير والدّوابّ وغير ذلك ممّا خصهما الله تعالى بعلمه[2] وقالا شكراً لله تعالى على نعمه العظيمة: الحمد والثّناء لله تعالى الّذى فضّلنا بهذه الآلاء الجسيمة على كثيرٍ من عباده المؤمنين به في زماننا هذا، وخصّنا بهذا العلم اللّدنّيّ.

وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ
وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾

وورث سليمان داود: وورث سليمان أباه داود العلم الّذى كان آتاه الله في حياته، والملك الّذى كان خصّه به على سائر قومه، فجعله له بعد أبيه داود، دون سائر ولد أبيه[3].

علّمنا منطق الطّير: فهّمنا كلامها. وجعل ذلك من الطير كمنطق الرّجل من بنى آدم إذ فهمه عنها[4].

وأوتينا من كلّ شيء: وأعطينا ووُهِبَ لنا من كلّ شيءٍ من الخيرات[5].

---

(١) الجلالين.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨٧.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨٧.

(٤) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨٧.

(٥) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨٧.

لهو الفضل: على جميع أهل دهرنا[1].

المبين: الّذى يُبين لمن تأمّله وتدبّره أنّه فضلٌ أعطيناه على من سوانا من النّاس[2].

وورث سليمان عليه السّلام أياه داود عليه السّلام العلم والملك والنّبوّة[3] دون سائر ولد أبيه، وقال يا أيّها النّاس لقد علّمنا الله تعالى فهم كلام الطّير وأعطانا من كلّ شيءٍ من الخيرات ممّا يقوى به مُلْكنا ويشتدّ. إنّ هذا العلم اللّدنّيّ والخير العميم، لهو الفضل العظيم من الله تعالى الواضح لكلّ من أبصره وتدبّره.

وَحُشِرَ

لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾
حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟
مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا
تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾

وَحُشِرَ: وَجُمِعَ[4].

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨٧.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨٧.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٦/ ١٩٢ والجلالين.

(٤) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨٧.

فهم يوزعون: فهم يُحبَس أوّلهم على آخرهم حتّى يجتمعوا[1] ويُرَدُّ أوّلهم على آخرهم[2] ويقال: وَزَعْته عن كذا كففته عنه. فقوله: ﴿يوزَعون﴾ إشارةٌ إلى أنّهم مع كثرتهم وتفاوتهم لم يكونوا مهملين ومبعدين كما يكون الجيش الكثير المتأذّى بمعرّتهم، بل كانوا مسوسين ومقموعين[3].

لا يحطمنّكم: لا يكسرنّكم ويقتلنّكم[4].

وهم لا يشعرون: وهم لا يعلمون أنّهم يحطمونكم[5].

أوزعني: ألهمني[6].

وجُمِع لسليمان عليه السّلام جنوده من الجنّ والإنس والطّير فهم يُجْمَعون في وئام، ويساقون في نظام، وكأنّ الآية الكريمة تشير إلى أحد شرطي الجنديّة وهو شرط النّظام والانضباط، وتأخذ بسبب من الآية الكريمة الّتي أشارت إلى النّظام في سورة الصّفّ[7] قال تعالى: ﴿إنّ الله يحبّ الّذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنّهم بنيانٌ مرصوص﴾ أمّا الشّرط الآخر فهو الطّاعة وإلى هذا الشّرط أشار قول الحقّ جلّ وعلا في سورة محمّد ﷺ[8]: ﴿ويقول الّذين آمنوا لولا نُزِّلَتْ سورة. فإذا أُنْزِلَتْ سورةٌ محكَمةٌ وذُكِرَ فيها القتالُ رأيت الّذين في قلوبهم مرضٌ ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت فأولى لهم. طاعةٌ وقولٌ معروف﴾.

---

(١) تفسير الطّبري ١٩/ ٨٧ ومفردات الرّاغب الأصفهاني: «وزع» ٢/ ٦٧٦

(٢) تفسير الطّبري ١٩/ ٨٧.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «وزع» ٢/ ٦٧٦

(٤) تفسير الطّبري ١٩/ ٨٨.

(٥) تفسير الطّبري ١٩/ ٨٨.

(٦) تفسير الطّبري ١٩/ ٨٨.

(٧) الآية ٤.

(٨) الآية ٢٠و٢١.

وهكذا يكون جيش سليمان عليه السّلام آيةً في الانضباط والنّظام دليلاً عملياً على الطّاعة. وبذلك يكون النّظام والطّاعة متلازمين وكأنّهما وجهان لدينارٍ واحد.

حتّى إذا أتى سليمان عليه السّلام وجيشه على وادى النّمل قالت نملةٌ لأخواتها: يا أيّها النّمل ادخلوا مساكنكم، وأووا إلى أماكنكم، لا يحطمنّكم ويكسرنّكم ويقتلنّكم سليمان وجنوده في أثناء سيرهم وهم لا يشعرون بكم ولا يعلمون بوجودكم.

لقد سمع سليمان عليه السّلام، بقدرة الله تعالى، كلام النّملة وفهم معناه، فقد علّمه الله تعالى لغات الطّير، فتبسّم عليه السّلام ضاحكاً من قول النّملة الصّادق النّافع البرىء، واستشعر في أعماقه إحسانَ الله تعالى العظيمَ إليه، ونعمه الجسيمة عليه، فازداد إيماناً بحقيقة قدره، وإيقاناً بشدّة ضعفه، ففرّ إلى أرحم الراحمين، يعلن عن عجزه، ويسأله تعالى أن يلهمه الشّكر على نعمه العظيمة، وآلائه الجسيمة، الّتى أسبغها عليه وعلى والديه، وعمل الصّالحات الّتى يرضاها عزّ وجلّ، وأن يدخله جلّ وعلا، رحمةً منه وفضلاً، في عباد الله تعالى الصّالحين، الّذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

والمعروف أنّ صفة الصّلاح هي الصّفة المشتركة بين جميع المنعم عليهم ابتداءً بالمرسلين وانتهاءً بالصّالحين. قال عزّ من قائل[1]: ﴿ومن يطع الله والرّسول فأولئك مع الّذين أنعم الله عليهم من النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين. وحَسُنَ أولئك رفيقا﴾ وحينما يبدأ المنعم عليهم بالمرسلين وينتهون بالصّالحين، مروراً بالنّبيّين والصّدّيقين والشّهداء، يكون طلب سليمان عليه السّلام أن يدخله عزّ وجلّ برحمته في عباده الصّالحين دليلاً على التّواضع العميق في نفس سليمان عليه السّلام وهو الّذى أنعم الله تعالى عليه بالنّبوّة والملك والفضل العظيم والخير العميم.

---

(١) سورة النّساء ٦٩.

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾

وتفقّد: التّفقّد التّعهّد لكن حقيقة التّفقّد تعرّف فُقْدان الشّيء[1].

لأعذّبنّه عذاباً شديدا: قال ابن عبّاس: نتف ريشه[2].

أو لأذبحنّه: أو لأقتلنّه[3].

أو ليأتينّي بسلطانٍ مبين: أو ليأتينّي بحجّةٍ تبين لسامعها صحّتها وحقيقتها[4] وبعذرٍ له في غيبته[5] أعذره فيه[6].

تعهّد سليمان عليه السّلام جيشه من الجنّ والإنس والطير فكان كعهده به من الطّاعة والنّظام والانضباط ولكنّه تبيّن فقدان طائرٍ واحدٍ هو الهدهد من بين سائر الجيش العَرَمْرَم. وذلك دليلٌ على ما منّ الله تعالى به على سليمان عليه السّلام من يقظةٍ ودقّة ملاحظة. ولمّا كان عليه السّلام يطرح سؤالين اثنين، يترتّب آخرهما على أوّلهما، ويتعلّق أوّلهما باحتمالٍ مرتبطٍ بسليمان عليه السّلام نفسه. ويتعلّق آخرهما بالهدهد الغائب بصفةٍ أكيدة، في حالة عدم وجود الجواب الشّافي الكافي على السّؤال الأوّل.

أمّا السؤال الأوّل على لسان سليمان عليه السّلام فقد جاء في قول الحقّ جلّ

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «فقد» ٢/ ٤٩٥.

(٢) تفسير الطّبري ١٩/ ٩٠.

(٣) تفسير الطّبري ١٩/ ٩٠.

(٤) تفسير الطّبري ١٩/ ٩١.

(٥) تفسير الطّبري ١٩/ ٩١.

(٦) تفسير الطّبري ١٩/ ٩١.

وعلا: ﴿مالي لا أرى الهدهد﴾ هل عدم رؤيتي الهدهد بسبب عدم استطاعتي وعجزي مع وجوده. وإنّ لسان الحال يقول: فليثبت الهدهد وجوده.

وحينما لم يثبت الهدهد وجوده طرح عليه السّلام السّؤال الآخر الّذي يفهم منه أنّ الغالب احتمال غياب الهدهد أمّا الاحتمال القليل فهو غفلة الهدهد عن السؤال عنه لسببٍ من الأسباب مع وجوده في الجيش آنذاك.

وتأكّد سليمان عليه السّلام من غياب الهدهد دون استئذانٍ وكان الحزم يقتضي عقاب المسيء كما يقتضي ثواب المحسن، فوضع سليمان عليه السّلام نوعين من العقاب المتدرّج نحو الشّدّة مترتّبين على نوع الذّنب الّذي من أجله غاب الهدهد. العقاب الأوّل تعذيب الهدهد تعذيباً شديداً، بنتف ريشه فيما يقال[1] والعقاب الآخر قتل الهدهد بواسطة ذبحه.

أمّا الّذي ينقذ الهدهد من العذاب والذّبح فإنّه السّلطان المبين، والعذر الّذي يتبيّن سامعه صحّته وحقيقته.

وهكذا تحقّق لسليمان عليه السّلام الحِلْم في السؤال بشقّيه عن الهدهد، والحزم في ذكر النّوعين من العذاب المتدرّجين نحو الشّدّة على غرار تدرّج السّؤالين السّابقين في مجال الحِلم وتهيئة التّحوّل إلى الحزم، كما تحقّق له عليه السّلام العدل بالأخذ في الاعتبار احتمال إتيان الهدهد بالعذر المقبول.

والحقيقة أنّا نودّ أن نقف عند القول: ﴿أو ليأتيّني﴾ لقدرة هذا القول على الإفادة بأنّ سليمان عليه السّلام بالقول على لسانه: ﴿أو ليأتيّني بسلطان مبين﴾ لا يدلّ فقط على عدله عليه السّلام فقط، بل يدلّ على فضله عليه السّلام أيضاً.

وتفسير ذلك أنّ جملة: «أتى» يدلّ استعمالها في القرآن الكريم على البعد بأنواعه، الزّمانيّ أو المكانيّ أو المعنويّ النّفسيّ، في حين يدلّ استعمال جملة: «جاء» صنوها على القرب في كلّ ذلك. وكأنّ القول: ﴿أو ليأتيّني بسلطانٍ مبين﴾ يفيد أنّ سليمان عليه السّلام مع استبعاده أن يأتي الهدهد بالعذر المقبول فإنّه

---

(١) تفسير الطّبري ١٩/ ٩٠.

يفترض استطاعة الهدهد الإتيان بذلك العذر المقبول كي يسقط عنه العذاب الشّديد، أو القتل الأكيد. والله تعالى أعلم.

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ
أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾
إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾

فمكث: أي الهدهد[1].

غير بعيد: أي غاب زماناً يسيراً ثمّ جاء[2].

فقال أحطت بما لم تحط به: فقال الهدهد حين سأله سليمان عن تخلّفه وغيبته أحطت بعلم ما لم تحط به أنت يا سليمان[3] واطّلعت على ما لم تطّلع عليه أنت ولا جنودك[4].

وجئتك من سبأ: سبأ اسم بلدٍ تفرّق أهله ولهذا يقال: ذهبوا أيادي سبأ، أي

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ١٩٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ١٩٦.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٩.

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ١٩٦.

تفرّقوا تفرّق أهل هذا المكان من كلّ جانب[1] وسبأ بفتح أوّله وثانيه، وهمز آخره وقصره: أرضٌ باليمن مدينتها مأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام. فمن لم يصرف فلأنّه اسم مدينة، ومن صرفه فلأنّه اسم البلد فيكون مذكّراً سمّي به مذكّرا. وسمّيت هذه الأرض بهذا الاسم لأنّها كانت منازل ولد سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان[2].

إنّي وجدت امرأة تملكهم: قال الحسن البصريّ: وهي بلقيس بنت شَراحيل ملكة سبأ[3].

وأوتيت من كلّ شيء: أي من متاع الدّنيا ما يحتاج إليه الملك المتمكّن[4].

ولها عرشٌ عظيم: ولها كرسيّ[5] وسريرٌ تجلس عليه عظيمٌ هائلٌ مزخرفٌ بالذّهب وأنواع الجواهر واللآلي[6].

فهم لا يهتدون: لسبيل الحقّ ولا يسلكونه ولكنّهم في ضلالهم الّذي هم فيه يتردّدون[7].

ألاّ يسجدوا لله: المعنى وزيّن لهم الشّيطان أعمالهم لئلاّ يسجدوا لله[8] أنّ حرف مصدريّ ونصب، ولا النّافية، والمصدر المؤوّل: ﴿ألاّ يسجدوا﴾ في محلّ نصب بدل من أعمالهم، أي زيّن لهم الشّيطان عدم السّجود[9].

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «سبأ» ١/ ٢٩٥.

(٢) معجم البلدان: «سبأ» ٣/ ١٨١ وانظر تفسير الطّبري ١٩/ ٩١ ٩٢ وفتح الباري ٨/ ٥٣٥.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ١٩٦.

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ١٩٦.

(٥) تفسير الطّبري ١٩/ ٩٢.

(٦) تفسير ابن كثير ٦/ ١٩٦.

(٧) تفسير الطّبري ١٩/ ٩٣.

(٨) تفسير الطّبري ١٩/ ٩٣.

(٩) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ٣٩٩.

الّذى يخرج الخبء في السّماوات والأرض: يخرج المخبوء في السّماوات والأرض من غيثٍ في السّماء ونباتٍ في الأرض ونحو ذلك[1].

فغاب الهدهد وقتاً غير طويل، وزمناً غير بعيد، وجاء فسأله سليمان عليه السّلام عن سبب غيابه وعدم وجوده وقت عمله فقال الهدهد في لهجة الواثق من نفسه، المطمئنّ إلى صحّة عذره، السّعيد بما خصّه الله تعالى به من علم، وحباه من كشف: لقد أحطت علماً بما لم تحط به أيّها النّبيّ الكريم والملك العظيم، وجئتك فعلاً في فلسطين من سبأ في اليمن، بنبأٍ يقين، وخبر جديد مهمّ أكيد. إنّي وجدت امرأةً تملك القوم هي بلقيس، وأوتيت من كلّ شيءٍ ذى علاقةٍ بأبّهة الملك وقوّة السّلطة، ولها سرير ملكٍ عظيم، وعرشٌ آيةٌ في الفخامة والرّوعة. لقد وجدتها هي وقومها يعبدون الشّمس ويسجدون لها من دون الله تعالى، وزيّن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة، وحسّن لهم الشّرك، فصدّهم عن سبيل الهدى، وصرفهم إلى مهاوى الرّدى، فهم لا يهتدون سبيلاً، ولا يسلكون طريقاً قويماً.

لقد حسّن الشّيطان الرّجيم لهم أعمالهم السّيّئة من الكفر والفسوق والعصيان، لئلاّ يسجدوا لله تعالى الّذى يخرج المخبوء في السّماء من الماء، وفي الأرض من النّبات، وكلّ مخبوء في السّماوات والأرض، والّذى يعلم كلّ ما تخفى وتعلن، تسرّ وتظهر. إنّه الله تعالى الّذى لا إله إلاّ هو ولا معبود بحقٍّ سواه، ربّ العرش الأعظم من كلّ عرش، والعلم المحيط، والقدرة المطلقة.

قَالَ سَنَنظُرُ

أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

ثمّ تولّ عنهم: أي كن قريبا منهم[2].

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٩٣.
(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٩٤.

فانظر ماذا يرجعون: فانظر ماذا يردّون من الجواب[1].

قال سليمان عليه السّلام سننظر أصدقت في عذرك الّذى جئت به أم كنت من الكاذبين الّذين يستحقّون العذاب المضاعف بسبب الإخلال بالواجب والكذب. اذهب أيّها الهدهد بكتابى هذا، فألقه إليهم، وأوصله إلى ملكتهم، ثم تولّ عنهم، وكن قريباً منهم، فانظر ماذا يردّون من الجواب، وما الّذى يأخذونه من الأسباب.

قَالَتْ يَا أَيُّهَا
الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ
اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾

قالت يا أيّها الملأ: الملأ أشراف قومها[2].

إنّى ألقي إليّ كتابٌ كريم: وصفته بذلك لأنّه كان من ملكٍ فوصفته بالكرم لكرم صاحبه[3].

ألاّ تعلوا عليّ: ألاّ تتكبّروا عليّ ولا تتعاظموا عمّا دعوتكم إليه[4].

وأتونى مسلمين: وأقبلوا إليّ مذعنين لله بالواحدانيّة والطّاعة[5].

حمل الهدهد كتاب سليمان عليه السّلام من فلسطين إلى بلقيس ملكة سبأ في اليمن وألقاه إليها وهي جالسةٌ على عرشها فيما يقال[6] وعلمت من شكل

---

(١) الجلالين.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٩٥.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ٩٥.

(٤) تفسير الطّبرى ١٩/ ٩٦.

(٥) تفسير الطّبرى ١٩/ ٩٦.

(٦) تفسير الطّبرى ١٩/ ٩٥.

الكتاب وفحواه أنّه من ملكٍ كريم، فخاطبت أشراف قومها بالقول: يا أيّها الملأ إنّي أُلقِيَ إليّ كتابٌ كريم من صاحبه الملك الكريم. إنّ الكتاب من سليمان وإنّه في غاية الإيجاز والإعجاز: إنّ فحواه: بسم الله الرّحمن الرّحيم، ألاّ تتكبّروا علي ولا تتعاظموا عمّا دعوتكم إليه، وأتونى مسلمين لله تعالى ربّ العالمين، عابدين لله تعالى وحده لا شريك له، نابذين الشّرك.

ومن أهمّ ما يلاحظ على هذا الكتاب الوجيز المعجز أنّ صدره يفضي إلى عجزه، فالصّدر: ﴿ألاّ تعلوا عليّ﴾ يخاطب مشركين. وهو يخاطبهم بطريقةٍ كريمةٍ يستميل بها أفئدتهم. إنّه ينهاهم عن التّعالي والتّعاظم على سليمان عليه السّلام. بمعنى أنه يدعوهم إلى التّواضع والتّطامن، كي يفهموا عن سليمان عليه السّلام قوله، ويستجيبوا لدعوته. وحينما يتواضع القوم ويتطامنون يلتقون مع سليمان عليه السّلام المتواضع الّذى يدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة. ومن الطّبيعيّ أن يبدأ الكتاب بما يخصّ سليمان عليه السّلام وبالّذين يدعوهم إلى الله تعالى ويبلّغهم رسالة الإسلام لله تعالى ربّ العالمين.

والعجز: ﴿وأتونى مسلمين﴾ يدعو المشركين إلى الإسلام لله تعالى ربّ العالمين، وبذلك يكونون إخوةً في الدّين لسليمان عليه السّلام النّبيّ الكريم، والملك العظيم، ولسائر المسلمين. وحينما يسلم المشركون لله تعالى ربّ العالمين، يسلمون تبعاً لنبيّ الله تعالى سليمان عليه السّلام. وبذلك تكون العزّة دائماً لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين.

وهكذا يشتمل هذا الكتاب الوجيز العزيز على الكثير من الدّروس في الدّعوة إلى الله تعالى ربّ العالمين.

قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ
تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ
فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً
أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾
وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

أفتونى في أمرى: أشيروا عليّ في أمـرى الّذى قد حضرنى من أمر صاحب هذا الكتاب الّذى ألقي إليّ، فجعلت المشورة فتيا[١].

ما كنت قـاطعةً أمـراً حتّى تشهـدون: ما كنت قاضـيةً أمـراً في ذلك حتّى تشهدون فأشاوركم فيه[٢] وحتّى تحضرون[٣].

قالوا نحن أولو قوّة: نحن ذوو القوّة على القتال[٤].

وأولو بأسٍ شديد: ونحن ذوو البأس الشّديد في الحرب[٥].

والأمر إليك فانظرى مـاذا تأمرين: والأمر أيّتها الملـكة إليك في القتال وفي تركه، فانظرى من الرّأي ما ترين فمرينا نأتمر لأمرك[٦].

إنّ الملوك إذا دخلوا قريةً: عنوةً وغلبة[٧].

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٩٦.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٩٦.

(٣) الجـــلالين.

(٤) تفسير الطّبرى ١٩/ ٩٦.

(٥) تفسير الطّبرى ١٩/ ٩٦.

(٦) تفسير الطّبرى ١٩/ ٩٦.

(٧) تفسير الطّبرى ١٩/ ٩٦.

وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة: وذلك باستعبادهم الأحرار واسترقاقهم إيّاهم[1].

وإنّي مرسلةٌ إليهم بهديّة: وإنّي مرسلةٌ إلى سليمان بهدية لأختبره بذلك وأعرفه به، أملكٌ هو أم نبيّ. وقالت: إن يكن نبيّاً لم يقبل الهديّة ولم يرضه منّا إلاّ أن نتّبعه على دينه، وإن يكن ملكاً قبل الهديّة وانصرف[2].

فناظرةٌ بم يرجع المرسلون: فأنظر بأيّ شيءٍ من خبره وفعله في هديّتي الّتي أرسلها إليه ترجع رسلي، أبقبولٍ وانصرافٍ عنّا أم بردّ الهديّة والثّبات على مطالبتنا باتّباعه على دينه. وأسقطت الألف من ما في قوله: «بم» وأصله بما لأنّ العرب إذا كانت ما بمعنى أيّ ثمّ وصلوها بحرف خافضٍ أسقطوا ألفها تفريقاً بين الاستفهام وغيره كما قال جلّ ثناؤه[3]: ﴿عمّ يتساءلون﴾ و[4]: ﴿قالوا فيم كنتم﴾[5].

بعد أن قرأت ملكة سبأ كتاب سليمان عليه السّلام، وكأنّها كانت قارئةً كاتبة، واستوعبت معناه وأدركت مرماه، بيّنت كلّ ذلك لملئها وأولى الرّأي والمشورة في مملكتها، وطلبت منهم أن يتدبّروا الأمر، ويفتوها في هذا الشّأن، فإنّها ما كانت قاطعةً في شأن، وقاضيةً بأمر حتّى يشهدوا الحال ويحضروا، ويتشاوروا الأمر ويقرّروا.

قال أشراف القوم وأولو الحلّ والعقد نحن أولو قوّة وقدرة على القتال، وأولو بأسٍ شديدٍ وبطشٍ أكيدٍ في حروبنا أعداءنا، والأمر إليك أوّلاً وآخراً، فانظري ماذا تأمرين به من قتال هذا الملك أو مهادنته.

قالت الملكة بلقيس إنّ العادة جرت بأنّ الملوك إذا كانوا ظلمةً، ودخلوا قريةً عتوةً، واحتلّوا مدينةً غَلَبَةً، أن يفسدوها بإهلاك الحرث والنّسل، وأن يجعلوا أعزّة

---

(١) تفسير الطّبري ١٩/ ٩٦.

(٢) انظر تفسير الطّبري ١٩/ ٩٧.

(٣) سورة النّبأ ١.

(٤) سورة النّساء ٩٧.

(٥) تفسير الطّبري ١٩/ ٩٨.

أهلها أذلّةً، ويسوموا أشرافها أشدّ الخسف، ويجرّعوا نبلاءها غصص الهوان. هكذا يفعل أولئك الظّلمة من الحكّام وتلك عادتهم، وذلك دأبهم وديدنهم. لذا فإنّي أري أن نتبيّن الأمر على جليّته، وذلك المَلِك على حقيقته، فنصانعه ونهادنه ونهاديه، فإن كان طالب دنيا وأبّهة مُلْك قبل الهديّة ونسينا، وإن كان نبيّاً رفض الهديّة وأصرّ على أن ندخل في دينه وإلاّ قاتلنا. إنّي مرسلةٌ بهديّةٍ قيّمةٍ لسليمان فمنتظرةٌ وراقبةٌ بأيّ شيءٍ يرجع رسلي، بإخباري بقبول الهديّة فهو ملك، أو بالعودة بالهديّة فهو نبيّ.

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾

ارجع إليهم: هذا قول سليمان لرسول المرأة[1].

لا قِبَلَ لهم بها: لا طاقة لهم بها[2].

ولنخرجنّهم منها أذلّة: ولنخرجنّ من أرسلكم من أرضهم أذلّة[3].

فلمّا جاء رسول ملكة سبأ سليمان عليه السّلام بهدايا الملكة قال سليمان عليه السّلام المعتزّ بالله تعالى وحده وخاطب الوفد بإباءٍ وشمم في أسلوب الاستفهام الإنكاريّ: أتمدّونني بمالٍ وتصانعونني بهديةٍ لأترككم وشرككم وملككم؟ فما أعطاني الله تعالى من المال والملك والنّبوّة خيرٌ ممّا أعطاكم. بل الحقيقة أنّكم أنتم الّذين تفرحون بالهديّة الّتي تُهْدَى إليكم لأنّكم تتفاخرون بالأموال والكنوز.

ارْجِعْ أيّها الرّسول إلى قومك بالهديّة، فلنأتينّهم بجنودٍ لا قِبَلَ لهم بها،

---

(١) تفسير الطّبري ١٩/ ٩٩.

(٢) تفسير الطّبري ١٩/ ٩٩.

(٣) تفسير الطّبري ١٩/ ٩٩.

ويجيوش لا طاقة لهم بها، ولنخرجنّهم من أرضهم وملكهم أذلّةً وهم صاغرون مهينون إنْ لم يسلموا لله تعالى ربّ العالمين، ويكونوا لنا إخواناً في الدّين.

قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾
قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى
عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ
بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا
مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ
لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

قبل أن يأتوني مسلمين: قبل أن يأتوني طائعين(١).

قال عفريتٌ من الجنّ: قال رئيسٌ من الجنّ ماردٌ قويّ، والجمع عفاريت(٢).

قبل أن تقوم من مقامك: قبل أن تقوم من مقامك للقضاء بين النّاس، وذكر أنّه كان يقعد إلى انتصاف النّهار(٣).

أمين: على ما فيه من الجواهر(٤).

قال الّذي عنده علمٌ من الكتاب: رجلٌ من الإنس(٥) فيما يقال وكان صدّيقاً يعلم الاسم الأعظم الّذي إذا دعي الله به أجاب وإذا سئل به أعطى(٦).

(١) تفسير الطّبري ١٩/ ١٠١.
(٢) تفسير الطّبري ١٩/ ١٠١.
(٣) انظر تفسير الطّبري ١٩/ ١٠٢.
(٤) تفسير الطّبري ١٩/ ١٠٢.
(٥) تفسير الطّبري ١٩/ ١٠٢.
(٦) تفسير الطّبري ١٩/ ١٠٣.

أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك: وجه الشّبه واضحٌ بين القول هنا: ﴿قبل أن يرتدّ إليك طرفك﴾ وبين القول: ﴿لا يرتدّ إليهم طرفهم﴾ في الآية الكريمة الثّالثة والأربعين من سورة إبراهيم. قال عزّ من قائل: ﴿مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتدّ إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾ وسبق لنا في أثناء دراستنا للآية الكريمة في التفسير البسيط[1] أن بيّنا معنى الآية الكريمة بعامّة، الجزئيّة الكريمة: ﴿لا يرتدّ إليهم طرفهم﴾ بخاصّة. ومعنى الآية الكريمة: «مسرعين إلى الدّاعي وهو المَلَك إسرافيل حينما ينفخ في الصّور المرّة الأخرى لفصل الحساب، رافعي رءوسهم متّجهين بها نحو ربّ السّماء الواحد القهّار الرّحمن الرّحيم. ولكنّهم لا يرتدّ إليهم طرفهم، فكأنّهم لا يبصرون شيئاً، بسبب زوغان البصر، وتشتّت النّظر، واضطراب الفكر، هذا إلى أنّ أفئدتهم هواء، فهي خاليةٌ من العقل لفزعهم، وقلوبهم فارغةٌ، فهي خاويةٌ من السّماع الواعي لاضطرابهم»[2].

وبشأن القول: ﴿لا يرتدّ إليهم طرفهم﴾ استأنسنا بالآية الكريمة الّتي نحن بصددها من سورة النّمل. وطرف العين جَفْنُه. والطَّرْف تحريك الجَفْن، وعُبّر به عن النّظر إذْ كان تحريك الجَفْن لازِمُه النّظر[3] وانتهينا، والله تعالى أعلم، إلى أنّ المعنى: «ولكنّ الّذي عنده علمٌ من الكتاب المنزل قال لسليمان عليه السّلام: أنا آتيك بعرش ملكة سبأ من اليمن إلى حضرتك هنا قبل أن يرتدّ إليكَ طرفك وقبل أن يرتد نظرك حاملاً إليك أول منظرٍ تراه عيناك، فكان ذلك الّذي ارتدّ به بصر سليمان عليه السّلام إليه هو عرش ملكة سبأ. وكان بإرادة الله تعالى ذلك على يد العبد الصّالح الّذي آتاه الله تعالى علماً لَدُنّياً. والدّليل على أنّ هذا هو معنى القول: ﴿قبل أن يرتدّ إليك طرفك﴾ القول بعد ذلك مباشرة: ﴿فلمّا رآه مستقراً عنده﴾ ولمّا كان الطَّرف بمعنى النّظر وبمعنى الجَفْن فليس ثمّة ما يمنع أن يكون

(١) ١٣/ ٢٥٩-٢٦١.

(٢) التّفسير البسيط ١٣/ ٢٥٩.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «طرف» ٢/ ٣٩٤.

المعنى: قبل أن يرتدّ إليك طرفك وبصرك حاملاً أوّل صورةٍ إثر أوّل حركةٍ من طرفك وجفنك. والله أعلم»[1].

علم سليمان عليه السّلام أنّ ملكة سبأ وملأها سوف يأتون إليه طائعين وأنّهم في الطريق إليه مذعنين، فقال عليه السّلام يا أيها الملأ أيّكم يأتيني بعرش ملكة سبأ في اليمن قبل أن يأتوني مسلمين، ويصلوا عندي طائعين. قال رئيسٌ من الجنّ ماردٌ قويّ: أنا آتيك به يا نبيّ الله قبل أن تقوم من مقامك هذا ومجلسك الّذى تجلس فيه للفصل بين الخصوم. قال الّذى عنده علمٌ من الكتاب المنزل أنا آتيك به يا نبيّ الله قبل أن يرتدّ إليك طرفك ويرجع إليك بصرك حاملاً أوّل صورة وقعت عليها عيناك. وكان عرش ملكة سبأ أوّل ما وقعت عليه عينا سليمان عليه السّلام، وربّما كان ذلك إثر أوّل حركة لجَفْنه عليه السّلام الّذى ارتفع بعد انخفاض. فلمّا رأى سليمان عليه السّلام العرش أمامه، مستقراً عنده، متمكّناً من مكانه، لم ينقص منه شيءٌ ولم يتغيّر قال عليه السّلام: هذا من فضل ربّى جلّ وعلا عليّ ليختبرنى أأشكر نعمه جلّ وعلا عليّ أم أكفرها. إنّ من شكر فإنّما يشكر لنفسه، لأنّ ثواب الشّكر عائدٌ عليه ومرتدٌّ إليه، ومن كفر فإنّما يكفر عليها، لأن وزر الكفر عائدٌ عليه ومرتدّ إليه. إنّ ربّى جلّ وعلا الّذى خلق الخلق وربّاهم بنعمه هو الغنيّ ونحن الفقراء، وهو الكريم الّذى شمل جوده البرّ والفاجر، والّذى لا يمتنع عطاؤه ولا تنفد خزائنه جلّ وعلا.

---

(١) التّفسير البسيط ١٣/ ٢٦٠.

قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا
نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ
أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ
﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ
﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن
سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى
ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

قال نكّروا لها عرشها: قال سليمان، لمّا أتى عرش بلقيس صاحبة سبأ وقدمت هي عليه، لجنده: غيّروا لهذه المرأة سريرها[1] بأن يزيدوا فيه وينقصوا منه[2].

ننظر أتهتدى أم تكون من الّذين لا يهتدون: ننظر أتعقل فتثبت عرشها أنّه هو الّذى لها[3] وتعرفه[4] أم تكون من الّذين لا يعقلون فلا تثبت عرشها[5] ولا تعرفه[6].

وأوتينا العلم من قبلها وكنّا مسلمين: وقال سليمان: وأوتينا العلم، مِنْ قَبْل هذه المرأة، بالله وبقدرته على ما يشاء، وكنّا مسلمين لله من قبلها[7].

وصدّها ما كانت تعبد من دون الله: ومنع هذه المرأة صاحبة سبأ، ما كانت

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٤.
(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٤.
(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٤.
(٤) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٥.
(٥) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٤.
(٦) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٥.
(٧) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٥.

تعبد من دون الله، وذلك عبادتها الشّمس، أن تعبد الله[1].

قيل لها ادخلي الصّرح: الصّرح بيتٌ عالٍ مزوَّق[2] وهو هنا كهيئة السّطح من قوارير، وأجرى من تحته الماء ليختبر عقلها بذلك[3] وقيل الصّرح هو القَصر[4].

حسبته لجّة: اللّجّة: البحر[5] ولُجّة البحر بالضّم تردّد أمواجه[6] ولجّة البحر حيث لا يُدْرك قعره[7].

ممرَّد: مبنيّ مشيد[8] ومملَّس من قولهم: شجرةٌ مرداء إذا لم يكن عليها ورق[9].

من قوارير: من زجاج[10].

قال سليمان عليه السّلام لحاشيته نكّروا لملكة سبأ عرشها، وغيّروا لهذه المرأة سرير ملكها، بأن تزيدوا فيه وتنقصوا منه. ننظر ونتبيّن أتهتدى ببصيرتها، وتدرك بثاقب فكرها، أنّه عرشها، أم تكون من الّذين لا يهتدون لذلك. إنّ لسان حاله عليه السّلام يقول: إنّ الاهتداء إلى حقيقة سرير ملكها في مجال المحسوسات مظنّة اهتدائها إلى سواء السّبيل بإذن الله تعالى في مجال المعنويّات. وإنّ عدم الاهتداء في مجال المحسوسات مظنّة عدم الاهتداء في مجال المعنويّات.

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٥.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «صرح» ٢/ ٣٦٧.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٦.

(٤) لسان العرب: «صرح».

(٥) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٦.

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «لجّ» ٢/ ٥٧٧.

(٧) لسان العرب: «لجج».

(٨) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٧.

(٩) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «مرد» ٢/ ٦٠٢.

(١٠) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «قر» ٢/ ٥١٥ وتفسير ابن كثير ٦/ ٢٠٤.

فلمّا جاءت ملكة سبأ جعل سليمان عيله السّلام مرورها على سرير ملكها المنكَّر وقيل لها: أَمِثْلُ هذا عرشك وسرير ملكك؟ ولمّا كان العرش في جوهره هو عرشها ولكن يستحيل في اعتقادها انتقاله من اليمن إلى فلسطين، هذا إلى التّغييرات الّتى أجريت عليه من جهة الشّكل بحيث يستحيل الجزم بأنّه عرشها وسرير ملكها، لذا كان جوابها قياساً على السّؤال الموجّه إليها ويدلّ على فرط ذكائها. قالت: كأنّ هذا العرش وسرير الملك عرشى وسرير ملكى.

ولا يخفى أنّ جواب ملكة سبأ يدلّ على أنّها اهتدت إلى الجواب السّديد، وأنّها بإذن الله تعالى ستهتدى إلى صراط العزيز الحميد.

وإنّ سليمان عليه السّلام الّذى أراد بتنكير العرش وسؤالها عنه معرفة استعدادها وقدرتها على الاهتداء بإذن الله تعالى، ليعبّر عن بعض مظاهر فضل الله تعالى عليه وتفضيل الله تعالى له على كثيرٍ من عباده المؤمنين، ومن باب الأحرى غير المؤمنين. لقد آتى الله تعالى سليمان عليه السّلام العلم الصّحيح النّافع من قبل ملكة سبأ، وكان هو وقومه من المسلمين لله تعالى ربّ العالمين. والمأمول أن تسلم ملكة سبأ هي الأخرى لله تعالى ربّ العالمين. لقد صدّ ملكةَ سبأ عن إفراد الله تعالى بالعبادة ما كانت تعبده من دون الله تعالى، وذلك عبادتها الشمس وسجودها لها. إنّها كانت من قومٍ كافرين ورثت عنهم الكفر وقد آن لها أن تحكّم عقلها النيّر، وتقشع الغشاوة عن عينيها.

ويصحّ أن تكون ملكة سبأ قد بلغها العلم أنّ العرش المنكّر هو عرشها، بقصد إشعارها ببعض القوّة الّتى منحها الله تعالى سليمان عليه السّلام إلى الحدّ الّذى استطاع معه أن ينقل بيسرٍ وسهولة ذلك العرش الّذى يحتاج نقله إلى قوّةٍ وحفظ.

وبقصد أن يطمئنّ قلب ملكة سبأ إلى ما خصّ الله تعالى به سليمان عليه السّلام من فضلٍ وملكٍ لا ينبغى لأحدٍ من بعده عليه السّلام ولا معاصرٍ من باب الأحْرى يُطْلَب من ملكة سبأ أن تدخل ساحة القصر العظيم وبَهْوَه. فلمّا رأت

السّاحة المعمولةَ من زجاجٍ آيةٍ في الشّفافية واللّطف، وتحت ذلك الزّجاج ماءٌ يترقرق، حسبت ملكة سبأ أنّ المطلوب منها أن تسير في الماء، فشمّرت أثوابها، وكشفت عن ساقيها معاً، اقتناعاً منها بأنّ الماء لعمقه يحتاج منها ذلك. إنّ ملكة سبأ لم تتبيّن الزّجاج بينها وبين الماء، فكأنّ الزّجاج لنقائه وصفائه غير موجود. وبذلك يكون مستوى صنع الزّجاج على عهد سليمان عليه السّلام بواسطة الجنّ مستوىً رفيعاً لا يكاد يبلغه الإنس.

في تلك اللّحظة الحاسمة الّتى همّت الملكة فيها أن تخوض الماء قال لها سليمان عليه السّلام: إنّ الّذى حَسِبْتِه ماءً هو سطحٌ من زجاجٍ غايةٍ في الشّفافية والصّفاء والنّقاء والنّعومة والقوّة. وكأنّى بملكة سبأ خطت إلى الأمام، وتأكّدت ممّا قال سليمان عليه السّلام، فأرسلت ثوبها، وحكّمت ـ بفضل الله تعالى ـ عقلها النّيّر.

وتجاه هذا الدّليل البليغ على الملك العظيم الّذى آتاه عزّ وجلّ نبيّ الله تعالى سليمان عليه السّلام والّذى لا ينبغى لأحدٍ غيره من بعده شاء الله تعالى هدايتها وشرح صدرها للإسلام. وها هي ذى ملكة سبأ تنادى ربّها عزّ وجلّ خالقها ومربّيها وتعلن على رءوس الأشهاد أنّها ظلمت نفسها من قبل بعبادة الشّمس، وأنّها أسلمت لله تعالى ربّ العالمين مع سليمان عليه السّلام، وأخلصت العبادة لله تعالى وحده دون سواه.

وهكذا تأكّد حدس سليمان عليه السّلام بأنّ اهتداء ملكة سبأ في مجال المحسوسات لحقيقة سرير ملكها، دليلٌ على اهتدائها إلى سواء السّبيل، واعتناقها دين الإسلام لله تعالى ربّ العالمين، ذلك الدّين الّذى بعث الله تعالى به كلّ النّبيّين والمرسلين، عليهم صلوات ربّ العالمين وسلامه أجمعين.

(٤)

(صـــالحٌ ولـــوطٌ

عليهما السّـــلام)

الآيات (٤٥ – ٥٥)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾

فإذا هم فريقان يختصمون: عن مجاهد مؤمن وكافر[1] يختلفون[2].

ولقد أرسل الله تعالى إلى ثمود في الحِجْر أو العلا أخاهم في النّسب صالحاً عليه السّلام يأمرهم بأن يعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له، فإذا قومه فريقان، مؤمنون وكافرون يختصمون ويختلفون. وإلى بعض ذلك الخصام بين المؤمنين والكافرين أشار قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الأعراف[3]: ﴿قال الملأ الّذين استكبروا من قومه للّذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أنّ صالحاً مرسلٌ من ربّه. قالوا إنّا بما أُرْسل به مؤمنون. قال الّذين استكبروا إنّا بالّذى آمنتم به كافرون﴾.

قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾

نادى صالحٌ عليه السّلام قومه أصحاب الحِجْر وخاطبهم في أسلوب الاستفهام الإنكارى قائلاً: يا قومى لماذا تستعجلون بالسّيّئة قبل الحسنة، والعذاب بدل الرّحمة. ما ذلك إلاّ لأنّكم قومٌ سفهاء. هلاّ تستغفرون الله تعالى لذنوبكم وتتوبون توبةً نصوحاً لعلّكم تُرْحمون.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٧.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٧.

(٣) الآية ٧٥و٧٦.

قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾

قالوا اطّيرنا بك وبمن معك: قالوا تشاءمنا بك وبمن معك من أتباعنا[1].

قال طائركم عند الله: عن ابن عبّاس قال: ﴿طائركم عند الله﴾ يقول: مصائبكم[2] أي الله يجازيكم على ذلك[3].

بل أنتم قومٌ تفتنون: بل أنتم قومٌ تختبرون، يختبركم ربّكم إذ أرسلني إليكم، أتطيعونه فتعملون بما آمركم به فيجزيكم الجزيل من ثوابه، أم تعصونه فتعملون بخلافه فيحلّ بكم عقابه[4].

هذا الموضع من سورة النمل الّذى يجىء فيه الحديث عن عمليّة التّطيّر موضعٌ من ثلاثة مواضع في القرآن الكريم جاء فيها الحديث عن عمليّة التّطيّر هذه.

أمّا الموضع الثّانى ففى قول الحقّ جلّ وعلا من سورة الأعراف[5]: ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسّنين ونقصٍ من الثّمرات لعلّهم يذّكّرون. فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيّئةٌ يطّيّروا بموسى ومن معه. ألا إنّما طائرهم عند الله ولكنّ أكثرهم لا يعلمون﴾.

وأمّا الموضع الثّالث ففى الحوار الّذى جرى بين المشركين وبين رسل الله تعالى الثّلاثة إليهم وذلك في قول الحقّ جلّ وعلا في سورة يس[6]: ﴿قالوا إنّا

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٧.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٠٧.

(٤) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٨.

(٥) الآية ١٣٠ و١٣١.

(٦) الآية ١٨ و١٩.

تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم وليمسّنّكم منّا عذابٌ أليم. قالوا طائركم معكم أئن ذكّرتم بل أنتم قومٌ مسرفون﴾.

وسبق لنا أن درسنا في شيءٍ من التّفصيل حديث سورة الأعراف عن عمليّة التّطيّر هذه في الجزء التّاسع من سلسلة التّفسير البسيط[1] ولله الحمد والمنّة.

ويصحّ أن نذكر هنا موجز تلك الدّراسة في سطور.

إنّ المشركين في كلّ زمانٍ ومكانٍ فهموا التّطيّر أخيراً بأنّه التّشاؤم. وإنّ كلّ ما يصيب المشركين من سوء يرجعونه إلى رسل الله تعالى إليهم وإلى أتباعهم من المؤمنين ووجودهم بين ظهرانَيْهِم. ومع أنّ المشركين تصيبهم الحسنة آنذاك أيضاً فإنّهم يرجعون ذلك إلى أهليّتهم واستحقاقهم لها. هذا هو منطق المشركين السّقيم دائماً.

وإنّ مجيء لفظة الطّائر في الرّدّ على أولئك السّفهاء بقصد دحض افترائهم في المواضع الثّلاثة والسّور الكريمات الثّلاث من باب المزاوجة والمشاكلة ومراعاة النّظير. إنّ المشركين لا يستطيعون أن يفهموا مجيء لفظ الطّائر في الرّدّ عليهم إلاّ في ضوء فهمهم الجاهليّ لعمليّة التّطيّر الّتى ترتبط أساساً بإهاجة الطّائر وإثارته والتّشاؤم به حينما يكون بارحاً. وإنّ هذا الوجه الأوّل من وجهي المعنى ليس هو المعنى المقصود إنّما المقصود الوجه الآخر للمعنى الّذى تفيده المزاوجة أو المشاكلة أو مراعاة النّظير. إنّ الوجه الآخر المقصود هو أنّ تشاؤمهم وتطيّرهم والمصائب الّتي كتبها الله تعالى عليهم عقابٌ من الله تعالى لهم بسبب ما اكتسبوا من الذّنوب، فعليهم أن يستغفروا الله تعالى ويتوبوا توبةً نصوحاً إن هم أرادوا أن تعود السّيّئة حسنة والعذاب رحمة.

وإنّ هذا المعنى الآخر المقصود من المزاوجة يعمّقه التّذييل في الآية الكريمة: ﴿بل أنتم قومٌ تفتنون﴾ والمعنى بل أنتم يبلوكم الله تعالى ويختبركم بالشّرّ والخير فتنةً وابتلاء.

---

(١) التّفسير البسيط ٩/ ٨٦ـ٩٢.

وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ
رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟
تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا
مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا
وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ
﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

وكان في المدينة: مدينة صالح وهي حِجْر ثمود[1].

تسعة رهط: تسعة أنفس[2].

يفسدون في الأرض ولا يُصْلِحون: لأنّ هؤلاء التّسعة الّذين سعوا، فيما بلغنا، في عقر النّاقة، وتعاونوا عليه، وتحالفوا على قتل صالح من بين قوم ثمود[3].

قالوا تقاسموا بالله: ليحلف بعضكم لبعض[4].

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٨.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٨.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٨.

(٤) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٨.

لنبيّتنّه وأهله: قالوا حين عقروا النّاقة نبيّت صالحاً وأهله فنقتلهم[1].

ثمّ لنقولنّ لوليّه ما شهدنا مهلك أهله: ثمّ ليقولُنَّ لأوليائه من أقربيه إنّهم ما علموا بشيءٍ من أمره[2] ثمّ لنقولنّ لولىّ دمه ما حضرنا هلاك أهله فلا ندرى من قتلهم[3].

ومكروا مكراً: وصار هؤلاء التّسعة الرّهط إلى صالحٍ ليلاً ليقتلوه وأهله وصالحٌ لا يشعر بذلك[4].

ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون: فأخذناهم بعقوبتنا إيّاهم وتعجيلنا العذاب لهم وهم لا يشعرون بمكرنا[5].

أنّا دمّرناهم وقومهم أجمعين: أنّا دمّرنا التّسعة الرّهط الّذين يفسدون في الأرض من قوم صالحٍ وقومهم من ثمود أجمعين فلم نبق منهم أحداً[6].

فتلك بيوتهم خاوية: فتلك مساكنهم خالية[7].

بما ظلموا: بظلمهم أنفسهم بشركهم بالله وتكذيبهم رسولهم[8].

إنّ في ذلك لآيةً لقوم يعلمون: لَعِظةً لمن يعلم فعلنا بهم ما فعلنا من قومك الّذين يكذّبونك فيما جئتهم به من عند ربّك وعبرة[9].

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٠٨.

(٣) انظر الجلالين.

(٤) انظر تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٩.

(٥) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٩.

(٦) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٩.

(٧) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٩.

(٨) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠٩.

(٩) تفسير الطّبرى ١٩/ ١١٠.

وكان في مدينة صالح عليه السّلام، وهي حِجْر ثمود أو العلا أو مدائن صالح تسعة أشخاصٍ يفسدون في الأرض بالمعاصي وإهلاك الحرث والنّسل ولا يصلحون. ومن مظاهر إفسادهم أنّهم بعد أن قتلوا النّاقة أرادوا أن يقتلوا صالحاً عليه السّلام وأهله. قال هؤلاء التّسعة النّفر ليحلف بعضكم لبعض بالله تعالى لنبيّتنّ جميعاً صالحاً وأهله ولنقتلنّهم في ظلمة اللّيل البهيم ثمّ لنقولنّ لوليّ دمه حينما نُسْأل عن القاتلين بأنّا ما رأينا مقتل أهله وإنّا لصادقون في قولنا فإنّا في الظّلام لا نتبيّن على جهة الدّقّة ضحايانا وقتلانا.

ومكر الرّهط مكر السَّوْء فأقدموا على عمليّة التّنفيذ، ومكرنا مكراً بإفساد مكرهم وجعل دائرة السَّوْء عليهم، وهم لا يشعرون بتقديرنا وتدبيرنا، ولا يعلمون أنّ تدبيرهم تدميرٌ لهم. فانظر يا محمّد ويا أيّها الإنسان كيف كان عاقبة مكرهم أنّا أهلكناهم أجمعين وفي مقدّمتهم الرّهط التّسعة. والدّليل على هلاك القوم بيوتهم الخاوية ومساكنهم الخالية في السّهول وفي الجبال، وتدميرهم بسبب ظلمهم بشركهم وارتكاب المعاصي. إنّ في تبيين مصير ثمود الأليم لعبرةً لقومٍ يعلمون قدرتنا المطلقة على ما نريد فيتعظون. إنّ هذا هو المطلوب من كفّار مكّة. وكما أهلك الله تعالى الكافرين المجرمين أنجى عزّ وجلّ المؤمنين المتّقين بقيادة صالحٍ عليه الصّلاة والسّلام.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ
أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ
ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

وأنتم تبصرون: أنّها فاحشة لعلمكم بأنّه لم يسبقكم إلى ما تفعلون من ذلك أحد[1].

(١) تفسير الطّبري ١٩/ ١١٠.

من دون النّساء: من دون فروج النّساء الّتى أباحها الله لكم بالنّكاح[1].

بل أنتم قومٌ تجهلـون: ما ذلك منكم إلاّ أنّكم قومٌ سفهـاء جهلة بعظيم حقّ الله عليكم فخالفتم لذلك أمره وعصيتم رسوله[2].

وكذلك أرسل الله تعالى لوطاً عليه السّلام يدعو قومه إلى توحيد الله تعالى وإفراده عزّ وجلّ بالعبـادة وينكر عليهم في أسلوب الاستفهام إتيـان فاحشة اللّواط وهم يبصرون ويعلمون قبح هذه الفاحشة الّتي لم يسبقهم إليها أحدٌ من ذى قبل. إنّه عليه السّلام يبيّن على وجه الدّقّة المراد بالفاحشة وأنّها إتيان الذّكور في أدبارهم لأجل الشّهوة من دون فـروج النّساء الّتى أباحها الله تعالى لهم بالنّكاح. الحـقيقة أنهم قومٌ يجهلون حقّ الله تعـالى عليهم ويأتون من السّفه والحمق ما لـم يسبقهم إليه أحدٌ من النّاس الأسوياء. إنّهم يأتون الذّكران في أدبارهم ويتركون ما أحلّ الله تعالى لهم من الزّوجات الطّيّبات الطّاهرات القانتات. وليس وراء هذا السّفه وراء، والعياذ بالله.

وصلّى الله وسـلّم على سيّدنا مـحمّـد وعلى آلـه وصحـبه أجـمعين. والحمد لله ربّ العالمين.

المدينة المنورة
صبيحة يوم الجمعة ٢٣ / ٣ / ١٤١٩هـ
الموافق ١٧ / ٧ / ١٩٩٨م

كتبه الفقير إلى عفو ربّه
د. حسن محمّد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩ / ١١٠.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩ / ١١٠.

فهرست الموضوعات

الموضـــــــوع	رقم الآيات	رقم الصفحة
المقدّمـــة		٧
أوّلاً :تمام سورة الفرقان		٩
بين يدي التّفسير		١٧
التّفســـير		٣٣-١١٦
١ ـ المستهزئون بطلب رؤية الله تعالى والملائكة لا يرجون لقاء الله تعالى ولهم عذابٌ أليم	٢١-٣١	٣٥
٢ ـ الحكمة من نزول القرآن الكريم منجّماً وللكافرين عذابٌ مقيم	٣٢-٣٤	٥٩
٣ ـ الكافرون لا يعتبرون بكلّ آيات الله تعالى، ويفرحون بشركهم، وهم أضلّ من الأنعام	٣٥-٤٤	٦٣
٤ ـ الله تعالى خالق كلّ شيءٍ ومدبّره، فهو المستحقّ وَحْدَه أن يُعْبَد	٤٥-٦٢	٧٥
٥ ـ نعوت عباد الرّحمن	٦٣-٧٧	٩٧
ثانياً : سورة الشّعراء		١١٧
بين يدي التّفسير		١٢٩
التّفســـير		١٥٥-٢٦٣
١ ـ الكافرون يصرّون على الإعراض عن كلّ آيات الله تعالى المعنويّة والماديّة	١-٩	١٥٧
٢ ـ نجاة موسى عليه السّلام وبنى إسرائيل وغرق فرعون وآله وجنده	١٠-٦٨	١٦٥

فهرست الموضوعات

الموضـــــوع	رقم الآيات	رقم الصفحة
٣ ـ إبراهيم عليه السّلام يدعو إلى توحيد الله تعالى، وثواب المتّقين، وعقاب الغاوين	٦٩-١٠٤	١٩٣
٤ ـ نجاة نوحٍ عليه السّلام وأصحاب السّفينة وغرق الباقين	١٠٥-١٢٢	٢٠٥
٥ ـ كذّبت عادٌ فأهلكها الله تعالى بريحٍ صرصرٍ عاتية	١٢٣-١٤٠	٢١٣
٦ ـ كذّبت ثمود فأهلكها الله تعالى بصاعقة العذاب المهين	١٤١-١٥٩	٢٢١
٧ ـ أصرّ قوم لوطٍ عليه السّلام على التّكذيب وإتيان المنكر فدمّرهم الله تعالى تدميرا	١٦٠-١٧٥	٢٢٩
٨ ـ أصرّ قوم شعيبٍ عليه السّلام على التّكذيب والإفساد في الأرض فأخذهم عذاب يوم الظّلّة	١٧٦-١٩١	٢٣٧
٩ ـ القرآن الكريم تنزيل السّميع العليم، على قلب النّبيّ ﷺ لينذر به، وليس قولَ كاهنٍ ولا شاعر	١٩٢-٢٢٧	٢٤٥
ثالثاً : سورة النّمل حتى نهاية الجزء التّاسع عشر		٢٦٥
بين يدي التّفسير		٢٧٣
التّفسير		٢٨٥-٣٣٣
١ ـ القرآن الكريم الّذى أوحاه الحكيم العليم هدىً للمؤمنين وعمىً على الكافرين	١-٦	٢٨٧
٢ ـ موسى عليه السّلام وآياته التّسع، وفرعون وقومه الفاسقون	٧-١٤	٢٩١
٣ ـ سليمان بن داود عليهما السّلام وملكة سبأ	١٥-٤٤	٣٠١
٤ ـ صالحٌ ولوطٌ عليهما السّلام	٤٥-٥٥	٣٢٥
فهرس الموضوعات		٣٣٣